تفسير سورةُ النور
من آية (47) إلى آية (57)
اللقاء العاشر

المعنى الإجمالي من آية (39) إلى آية (46):

يضرِبُ الله تعالى مَثليْنِ لأعمالِ الكفَّارِ، فيذكرُ المثلَ الأولَ، فيقولُ تعالى: والذين كفَروا برَبِّهم وكذَّبوا رسُلَه، أعمالُهم التي عَمِلوها ظنًّا منهم أنَّها تنفَعُهم، لا ثوابَ لها، مِثلُ السَّرابِ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، يراه العَطشانُ فيظُنُّه ماءً، فإذا أتاه لم يجِدْه ماءً، وكذا الكافِرُ يظُنُّ أنَّ أعمالَه تنفَعُه، حتَّى إذا مات وبُعِثَ لم يجِدْ ثَوابَها، ووجدَ رَبَّه عندَه بالمرصادِ، فوفَّاه حِسابَ عَمَلِه كاملًا، واللهُ سَريعُ الحِسابِ.

ثمَّ يذكَرُ الله تعالى المثلَ الثاني، وما هم فيه مِن ضَلالٍ وجَهلٍ لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، فيقولُ: أو أعمالُهم مِثلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ يَعلوه موجٌ، مِن فَوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ آخَرُ، مِن فَوقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ مُتراكِمٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، إذا أخرجَ مَن وقَع في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظُّلُماتِ، ومَن لم يَهْدِه اللهُ للإيمانِ وينَوِّرْ قَلبَه بنورِ الإسلامِ، فما له مِن هادٍ.

يقول الله تعالى: ألَمْ ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينَزِّهُه كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المخلوقاتِ، والطَّيرُ باسِطاتٍ أجنِحَتَها في السَّماءِ حالَ الطَّيرانِ تُسَبِّحُ رَبَّها؟ كُلُّ مَخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله، وهو سُبحانَه عليمٌ بأفعالهم، لا يخفَى عليه شيءٌ منها، ولله وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، فهو المالِكُ والمتصَرِّفُ في الكونِ، وإليه مَرجِعُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ مظاهرِ قدرتِه: ألم ترَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَسوقُ بقُدرتِه السَّحابَ إلى حيثُ يشاءُ، ثمَّ يجمَعُه بعدَ تفَرُّقِه، ثمَّ يجعَلُه مُتراكِمًا بعضُه فوقَ بَعضٍ، فترى المطَرَ يخرُجُ مِن بينِ السَّحابِ الكثيفِ؟

ويُنَزِّلُ اللهُ مِن السَّماء بَرَدًا مِن قِطَعِ سَحابٍ عَظيمةٍ كأمثالِ الجِبالِ، فيُصيبُ بذلك البَرَدِ مَن شاء مِن العبادِ، ويَدفَعُه عمَّن يشاءُ، يَكادُ ضَوءُ البَرقِ في السَّحابِ يَخطَفُ أبصارَ النَّاظِرينَ؛ مِن شِدَّةِ إضاءتِه، وقُوَّةِ لَمعانِه، يُقلِّبُ اللهُ تعالى اللَّيلَ والنَّهارَ، بمَجيءِ أحَدِهما بعدَ الآخَرِ، واختلافِهما طُولًا وقِصَرًا، وحرًّا وبردًا، ونورًا وظلمةً، وبما يقعُ فيهما مِن وقائعَ وأحداثٍ إلى غير ذلك، إنَّ في ذلك لَدلالةً واضِحةً، وعِظةً بليغةً لأصحابِ العُقولِ.

والله تعالى خلقَ كُلَّ ما يَدِبُّ على الأرضِ مِن ماءٍ؛ فمِن هذه الدوابِّ مَن يزحَفُ على بَطنِه، كالحيَّةِ والزَّواحِفِ؛ ومنهم مَن يمشي على رِجلينِ، كالإنسانِ والطَّيرِ؛ ومنهم مَن يمشي على أربَعٍ، كالبهائِمِ ونَحوِها، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثم يقولُ تعالى: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ علاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ، واللهُ يُرشِدُ ويوَفِّقُ مَن يشاءُ إلى طريقِ الإسلامِ الواضِحِ المستقيمِ.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿47﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: بعد أن ذُكِرَت دلائِلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وذُكِرَ الكُفَّارُ الصُّرَحاءُ الذين لم يَهتَدوا بها في قَولِه تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [النور: 39]، تهيَّأ المقامُ لذِكرِ صِنفٍ آخَرَ مِن الكافرينَ الذين لم يَهتَدوا بآياتِ الله، وأظهَروا أنَّهم اهتَدوا بها

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا) أي: ويَقولُ المنافِقونَ بألسِنتِهم كَذِبًا مِن غيرِ يقينٍ ولا إخلاصٍ: آمَنَّا باللهِ وبرَسولِه محمَّدٍ، وأطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه. موسوعة التفسير

الإيمان: هو التصديق مع الإذعان والقبول.

كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [البقرة: 8، 9].

وقال سُبحانَه: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [المنافقون: 1].

(ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي: ثمَّ يُعرِضُ طائِفةٌ مِن المنافِقين عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه مِن بَعدِ قَولِهم: آمنَّا وأطَعْنا. موسوعة التفسير

التولي يكون بالجسم والإعراض يكون بالقلب، والمراد هنا تولى بجسمه وبقلبه.

يخبر تعالى عن حال المنافقين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة توليا عظيما.

وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، وتجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصا: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) أي: وليس أولئك القائِلونَ بأفواهِهم: آمَنَّا باللهِ وبالرسولِ وأطَعْنا بالمؤمِنينَ المخلِصينَ الثَّابِتينَ. موسوعة التفسير

❍المعنى: أن من يعرض عن العمل والتطبيق ليس مؤمناً إيماناً شرعياً، فإن الإيمان الشرعي لا بد فيه من القول والعمل والاعتقاد، فمجرد القول وحده لا يكفي في إثبات الإيمان الشرعي.

❍فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم.

قال ابن عثيمين: فيه دليلٌ واضحٌ على أنَّ الإنسانَ إذا قال: إنَّه مؤمِنٌ، وهو مُتَوَلٍّ ومُعرِضٌ؛ فهو كاذبٌ في دَعْواه، وهو إمَّا أن يكونَ ليس مؤمنًا أصلًا، وإمَّا أن يكونَ مؤمنًا لكن ناقص الإيمانِ، فإذا كان التولِّي تولِّيًا مُطلقًا انتفَى أصلُ الإيمانِ، وإذا كان التولِّي تولِّيًا غيرَ مُطلَقٍ، بل في بعضِ الأمورِ، فإنَّها تختلِفُ؛ فبَعضُ الأمورِ إذا تركَها الإنسانُ وأعرَضَ عنها قد يكونُ كافِرًا، وقد يكونُ مُؤمِنًا ناقِصَ الإيمان.

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، بمجرد تحققه تترجم إلى حركة وإلى عمل، فتنقاد الجوارح في طاعة الله ورضاه، ويتمثل ذلك في كل حركاته وسكناته، في عباداته ومعاملته، أقوال وأعمال وأخلاق تنطق بقلب مؤمن محب لله ورسوله، ملتزم بشريعته، مقدس لأحكام دينه.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿48﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا فضح المنافِقين بما أخفَوه مِن تولِّيهم، قبَّح عليهم ما أظهَروه، فقال تعالى

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) أي: وإذا دُعِيَ هؤلاء المنافِقونَ إلى كتابِ اللهِ وإلى رَسولِه؛ لِيَحكُمَ بينهم الرَّسولُ بحُكمِ اللهِ فيما يَختَلِفونَ فيه، إذا طائِفةٌ مِن المنافِقينَ يُعرِضونَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه. موسوعة التفسير

❍أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى بما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه.

❍وهذا حال كثير من منافقين هذا الزمان ممن يكره ما أنزل الله تعالى وينكره، بل ويعاديه، ويسعى في إزاحته عن واقع حياة الناس، فقد نقض إيمانه، وفقد أصله، وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول -ﷺ-، ولو عمل به، فقد كفر؛ لقوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد: 9].

قال ابن تيمية: القُرآنُ يُبَيِّنُ أنَّ إيمانَ القَلبِ يَستَلزِمُ العمَلَ الظَّاهِرَ بحَسَبِه، فنفَى الإيمانَ عَمَّن تولَّى عن طاعةِ الرَّسولِ، وأخبَرَ أنَّ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورَسولِه ليَحكُمَ بيْنهم، سَمِعوا وأطاعوا؛ فبَيَّن أنَّ هذا مِن لوازِمِ الإيمانِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا [النساء: 61].

وقال سُبحانَه: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: 65].

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ﴿49﴾

(وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) أي: وإنْ يكُنِ الحَقُّ للمُنافِقينَ على مَن يُخاصِمونَه، يَقبَلوا التَّحاكُمَ إلى اللهِ ورَسولِه، ويأتوا إلى الرَّسولِ طائِعينَ مُنقادينَ لحُكمِه؛ لِمُوافقتِه لأهوائِهم. موسوعة التفسير

قال السعدي: ليس ذلك لأجْلِ أنَّه حُكمٌ شَرعيٌّ، وإنَّما ذلك لأجْلِ مُوافَقةِ أهوائِهم، فليسوا ممدوحينَ في هذه الحالِ ولو أتَوا إليه مُذعِنينَ؛ لأنَّ العبدَ حقيقةً مَن يَتَّبِعُ الحَقَّ فيما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وفيما يَسُرُّه ويَحزُنُه، وأمَّا الذي يَتَّبِعُ الشَّرعَ عندَ موافقةِ هواه، ويَنبِذُه عندَ مخالفتِه، ويُقَدِّمُ الهوى على الشَّرعِ؛ فليس بعَبدٍ على الحقيقةِ.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿50﴾

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي: أفي قُلوبِ هؤلاء المنافِقينَ -المعرِضينَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه- مَرَضٌ مُلازِمٌ لهم، أخْرجَ القلبَ عن صِحَّتِه، فصاروا كالمريضِ الذي يُعرِضُ عمَّا يَنفَعُه، ويُقبِلُ على ما يضُرُّه. موسوعة التفسير

- الهمزة في قوله (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) للاستفهام الإنكاري الذي يقصد منه التقريع والتوبيخ.
- والمراد بالمرض هنا (الشَّهوةُ، الهوى) يولد الإرادة السيئة التي تصرفهم عن التحاكم.
- وقال البعض: هو مرض النفاق والشك.

وقال ابن عثيمين: (الذي يَظهَرُ لي -واللهُ أعلَمُ- أنَّ المرادَ به الشَّهوةُ في الإرادةِ السَّيِّئةِ؛ بدَليلِ التَّقسيمِ، سواءٌ كان كُفرًا أو نِفاقًا أو غيرَ ذلك، المهِمُّ أنَّ المرَضَ هو الإرادةُ السَّيِّئةُ التي تَصرِفُهم عن قَبولِ الحَقِّ).

(أَمِ ارْتَابُوا) أي: أمْ حدَثَ لهم شَكٌّ واضطرابٌ وتردُّدٌ وقلقٌ. موسوعة التفسير

- وهذا دليل على أن سبب الانحراف هو: إما شهوة، وإما شبهة.

قال الماوَرْدي: (أَمِ ارْتَابُوا أي: شكُّوا. ويَحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في عَدلِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. الثَّاني: في نبُوَّتِه).

(أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ) أي: أمْ يخافون أن يَجورَ اللهُ ورَسولُه عليهم في الحُكمِ. موسوعة التفسير

(بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أي: بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ الرِّضا والتَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ. موسوعة التفسير

- وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿51﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال السعدي: لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى حالةَ المعرِضينَ عن الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ ذَكَرَ حالةَ المؤمِنينَ الممدوحين، فقال

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي: إنَّما يَنبغي على المؤمِنينَ الصَّادقينَ المخلِصينَ إذا طُلِب منهم عندَ اختلافِهم التَّحاكُمُ إلى اللهِ ورَسولِه- أن يقولوا برَغبةٍ ومُبادرةٍ، وإقبالٍ دونَ مَطلٍ وتَسويفٍ وتَرَدُّدٍ: سَمِعْنا الدَّعوةَ، وأجَبْنا إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، ورَضِينا بحُكمِهما لنا أو علينا. موسوعة التفسير

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أي: وأولئك المؤمِنونَ المتحاكِمونَ إلى اللهِ ورَسولِه، هم المدرِكونَ لِما يَطلبونَ، وفي الجنَّةِ هم خالِدون. موسوعة التفسير

قال السعدي: حصَرَ الفلاحَ فيهم؛ لأنَّ الفلاحَ: الفَوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن المكروهِ، ولا يُفلِحُ إلَّا مَن حكَّمَ اللهَ ورَسولَه، وأطاع اللهَ ورَسولَه.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿52﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال السعدي: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى فَضلَ الطَّاعةِ في الحُكمِ خُصوصًا؛ ذَكَرَ فَضلَها عُمومًا في جميعِ الأحوالِ، فقال

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فيما يأمُرانِه ويَنهيانِه، ويَخَفِ اللهَ العظيمَ خَوفًا مُقترِنًا بعِلمٍ وتَعظيمٍ، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيَمتَثِلْ أوامِرَه، ويَترُكْ نواهيَه- فأولئك هم الظَّافِرونَ بكُلِّ خَيرٍ، النَّاجونَ مِن كُلِّ شَرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ. موسوعة التفسير

قال ابن تيمية: ميَّزَ اللهُ عزَّ وجلَّ بيْن حَقِّه وحَقِّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ؛ فالطاعةُ لله والرَّسولِ، والخَشيةُ للهِ وحْدَه، والتَّقوى للهِ وحْدَه، لا يُخْشَى مخلوقٌ، ولا يُتَّقَى مخلوقٌ؛ لا مَلَكٌ ولا نبيٌّ ولا غيرُهما.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما.

نتأمل في غزوة حمراء الأسد، كان هدفها مطاردة قريش ومنعها من العودة للقضاء على المسلمين بالمدينة، ورفع الروح المعنوية للصحابة بعد غزوة أحد، وفيها هربت قريش من المسلمين.

خرج سعد بن معاذ راجعا إلى داره يأمر قومه بالمسير، قال والجراح في الناس فاشية عامة بني عبد الأشهل جريح بل كلها، فجاء سعد بن معاذ فقال إن رسول الله يأمركم أن تطلبوا عدوكم، فقال أسيد بن حضير وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعا وطاعة لله ولرسوله فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه ولحق برسول الله.

(وَيَخْشَ اللَّهَ): يخافه خوفا مقرونا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى.

(مَنْ كَانَ بِاللهِ أَعْرَفْ كَانَ مِنْهُ أَخْوَفْ) وعن معصيته أبعد، ولطاعته أرغب.

(وَيَتَّقْهِ): التقوى فعل المأمورات وترك المنهيات.

(فَأُولَئِكَ): الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه.

(هُمُ الْفَائِزُونَ): بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، كما قال تعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

قوله:(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) من فضائل طاعة الله ورسوله:

أولاً: سبب للرحمة، قال تعالى: (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

ثانياً: مع الذين أنعم الله عليهم، قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ).

ثالثاً: سبب للحياة الحقيقية، قال تعالى: (اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ).

رابعاً: سبب للهداية، قال تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا).

قوله :(وَيَخْشَ اللَّهَ) فضل خوف الله وخشيته، ومن فضائله:

أولاً: سبب لدخول الجنة، قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

ثانياً: جنتان، قال تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ).

ثالثاً: من صفات المؤمنين، قال تعالى: (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً).

رابعاً: سبب لإظلال الله يوم القيامة، قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ" صحيح البخاري.

فجمَعَ اللهُ في هذه الآيةِ أسبابَ الفوزِ؛ فالفاءُ في فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ جَزائيَّةٌ، مُؤذِنةٌ بأنَّ ما بعْدَها مُسبَّبةٌ عمَّا قبْلَها ممَّا تضمَّنَه الشَّرطُ مِن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه؛ فخَشيةُ اللهِ على ما مَضى، إنْ فرَطَ منه تَقصيرٌ فيَتدارَكُه، وتَقْوى اللهِ فيما يُستقبَلُ مِن ترْكِ ما يجِبُ عليه أنْ يذَرَهُ، والإتيانِ بما يجِبُ عليه إتيانُه، فعَمَّ الأوقاتَ بأسْرِها، والأفعالَ بأجمَعِها، مِن فِعلِ ما يَنْبغي، وترْكِ ما لا يَنْبغي؛ ولذلك قِيل: فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، أي: الكامِلونَ في الفوزِ بمَباغِيهم ومَطالِبِهم. الدرر السنية

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [النساء: 13].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا [الأحزاب: 71].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿53﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذكَرَ الله سُبحانَه ما رَتَّب على الطَّاعةِ الظَّاهِرةِ التي هي دَليلُ الانقيادِ الباطِنِ؛ ذكَرَ حال المنافِقينَ فيه، فقال

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ) أي: وحلَفَ باللهِ أولئك المنافِقونَ أغلَظَ أيمانِهم وأشَدَّها، مُبالِغينَ في تأكيدِها: لَئِنْ أمَرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخروجِ إلى الجهادِ لَيَخْرُجُنَّ معك. موسوعة التفسير

قال تعالى: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [التوبة: 96].

(قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ) أي: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لأولئك المنافِقين: لا تَحلِفوا؛ فقد عرَفْتُ أنَّ طاعتَكم مجرَّدُ قَولٍ بلا فِعلٍ، وطاعةٌ نِفاقيَّةٌ لم تكُنْ عن اعتِقادٍ، ومعروفٌ عنكم الكَذِبُ دونَ الإخلاصِ، وقد عرَفتُ كَذِبَكم في دعواكم طاعتي إن أمَرْتُكم بالخُروجِ للجِهادِ. موسوعة التفسير

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَ مِن طاعةٍ أو مَعصيةٍ، ويعلَمُ ما في بواطِنِكم، وهو مُجازيكم بكُلِّ ذلك؛ فإنَّه إنْ خَفِيَ على النَّاسِ حَقيقةُ حالِكم؛ لنِفاقِكم وكَذِبِكم، فإنَّه لا يخفى على اللهِ العالِمِ بالسَّرائِرِ، المطَّلِعِ على بواطِنِ الأمورِ. موسوعة التفسير

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿54﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا بكَّت اللهُ تعالى المنافِقين بأنَّه مُطَّلِعٌ على سَرائِرِهم؛ تلطَّفَ بهم فأمَرَهم بطاعةِ اللهِ والرَّسولِ، وهو أمرٌ عامٌّ للمُنافِقين وغَيرِهم.

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أي: قُلْ -أيُّها النبيُّ- لهؤلاء المنافِقين: أطيعوا اللهَ باتِّباعِ كِتابِه، وأطيعوا الرَّسولَ باتِّباعِ سُنَّتِه طاعةً ظاهِرةً وباطِنةً بصِدقٍ وإخلاصٍ. موسوعة التفسير

في قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ قال ابن عثيمين: إعادةُ العاملِ (أطيعُوا) تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم طاعةٌ مُستقِلَّةٌ؛ وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فكما جاء به عنِ اللهِ؛ ولهذا قال العلماءُ: (إنَّ ما وَجَبَ في سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالذي وَجَبَ في القُرآنِ مِن أمرٍ ونهيٍ)، وهذا واضِحٌ؛ لأنَّه جعَلَ طاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً مُستقِلَّةً؛ حيث قال: أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) أي: فإنْ تُعرِضوا -أيُّها المنافِقونَ- عمَّا جاءكم به الرَّسولُ، فإنَّما عليه مسؤوليَّةُ تبليغِكم الرِّسالةَ، وأداءُ الأمانةِ، وعليكم مسؤوليةُ طاعتِه، واتِّباعُ شَريعتِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وإنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ مِن الرِّسالةِ، وقد أدَّاها. وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِن الطاعةِ، وقد بانت حالُكم وظهَرت، فبان ضلالُكم وغيُّكم، واستحقاقُكم العذابَ).

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) أي: وإنْ تُطيعوا الرَّسولَ في أمرِه ونَهيِه، تَرشُدوا إلى الخَيرِ، وتُصيبوا الحَقَّ في جميعِ أمورِكم. موسوعة التفسير

تَهْتَدُوا إلى الصراط المستقيم، قولا وعملا فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

انظروا في حال ابن عمر -رضي الله عنه- فيصلي في ذات المكان الذي صلى فيه النبي -ﷺ-، وهنا كان الرسول -ﷺ- يدعو قائما، فيدعو ابن عمر قائم، وهنا كان الرسول يدعو جالسا، فيدعو عبد الله جالسا، وهنا وعلى هذا الطريق نزل الرسول يوما من فوق ظهر ناقته، وصلى ركعتين، فصنع ابن عمر ذلك إذا جمعه السفر بنفس البقعة والمكان.... وهكذا كانوا صحابة النبي -رضي الله عنهم-.

قال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ: (مَن أمَّرَ السنَّةَ على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطقَ بالحِكمةِ، ومَن أمَّرَ الهوى على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطَقَ بالبدعةِ؛ لقولِه تعالى: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا).

قال ابن عثيمين: في قَولِه تعالى: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا إشارةٌ إلى أنَّ ما جاءت به السُّنَّةُ فهو حُكمٌ مُستقِلٌّ يجبُ أن يُطاعَ ويُتَّبَعَ، كما جاء في القرآنِ؛ ولهذا قال: تَهْتَدُوا، فالهِدايةُ مطلوبةٌ؛ فإذا أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرٍ، فلا يجوزُ لنا أن نقولَ: هل لهذا أصلٌ في القُرآنِ أو لا؟ إن كان له أصلٌ قَبِلْناه، وإن لم يكُنْ له أصلٌ لم نَقبَلْه! لأنَّ هذا حرامٌ، وهو كُفرٌ بالقُرآنِ نفْسِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، ثمَّ قال: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا؛ فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ ما جاء به فهو حَقٌّ وهِدايةٌ، ليس فيه باطِلٌ وضَلالٌ.

كما قال تعالى: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى: 52].

وعن العِرباضِ بنِ سارية رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ ذاتَ يومٍ، ثمَّ أقبَلَ علينا، فوعَظَنا مَوعِظةً بَليغةً، ذَرَفَت منها العُيونُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، كأنَّ هذه مَوعِظةُ مُوَدِّعٍ! فماذا تعهَدُ إلينا؟ فقال: أُوصيكم بتَقوى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعةِ وإن كان عبدًا حَبَشيًّا؛ فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرى اختِلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المهديِّينَ، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحدَثةٍ بِدعةٌ، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ)) صحيح ابن ماجه.

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) أي: ولا يَجِبُ على الرَّسولِ إلَّا التَّبليغُ الظَّاهِرُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ لكم رسالةَ اللهِ، بحيثُ لا يبقَى لدى أحَدٍ شَكٌّ ولا شُبهةٌ، وقد أدَّى ذلك، وقام بوظيفتِه، وبَقِيَ عليكم ما حُمِّلْتُم، وليس هو مَن كَلَّفكم، وليس عليه هدايتُكم ولا حِسابُكم، فطاعتُه يعودُ نَفعُها إليكم، ومَعصيتُه يعودُ وبالُها عليكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272].

وقال سُبحانَه: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40].

وقال تبارك وتعالى: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [النحل: 35].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿55﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: المناسَبةِ مع قَولِه: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا [النور: 54]، فيكونُ المعنى: وإنْ تُطيعوه تَهتَدوا وتُنصَروا وتَأمَنوا

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) أي: وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا مِن هذه الأمَّةِ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ وَعدًا جازِمًا مؤَكَّدًا أنَّه سيُورِثُهم الأرضَ، فيَجعَلُهم خُلَفاءَ فيها، مُسيطرينَ عليها، متصرِّفينَ في أمورِها، والقيامِ بتَدبيرِها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء: 105].

وقال سُبحانَه: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: 40، 41].

❍فهذه أسباب النصر والتمكين: الإيمان والعمل الصالح، وطاعة الله ورسوله، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحكيم الشرع في جميع جوانب الحياة.

❍لماذا يسلط علينا الكفار والمنافقين اليوم؟ الجواب بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح، فمن بحث عن أسباب التمكين في غير هذه الأسباب، فهو مخطئ.

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد: 7].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زوى لي الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها....)) رواه مسلم .

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي: كما ملَّك اللهُ الأرضَ لآخَرِينَ مِن قَبْلِ هذه الأُمَّةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ موسى لِقَومِه: عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [الأعراف: 129].

وقال سُبحانَه: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ [القصص: 5، 6].

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ) أي: ولَيُثَبِّتَنَّ اللهُ للمُؤمِنينَ دينَ الإسلامِ الذي اختارَه لهم، فيَظهَرُ على غيرِه مِن الأديانِ، ويَنتَشِرُ ويتمَكَّنُ أتباعُه مِن إقامةِ شَرائِعِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: 33].

وعن تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ. وكان تميمٌ الدَّاريُّ يقول: قد عرَفتُ ذلك في أهلِ بيتي؛ لقد أصابَ مَن أسلَمَ منهم الخيرُ والشَّرَفُ والعِزُّ، ولقد أصابَ مَن كان منهم كافِرًا الذُّلُّ والصَّغارُ والجِزيةُ)).

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) أي: وليُغَيِّرَنَّ اللهُ حالَ المؤمِنينَ مِن الخَوفِ مِن أعدائِهم إلى الأمنِ التَّامِّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الأنفال: 26].

قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرموتَ لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستعجِلون)) رواه البخاري.

وعن عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بينا أنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ أتاه رجُلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثمَّ أتاه آخَرُ فشكا إليه قطْعَ السَّبيلِ، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ؟ قلتُ: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها، قال: فإنْ طالت بك حياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلَّا اللهَ –قُلتُ فيما بيْني وبيْن نفْسي: فأينَ دُعَّارُ "قُطَّاعُ الطَّريقِ" طَيِّئٍ الذين قد سَعَّروا البلادَ "أوقَدوا نارَ الفِتنةِ" ؟!– ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسرى، قلتُ: كسرى بنِ هُرمزَ؟! قال: كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بك حياةٌ لتَرَيَنَّ الرجُلَ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه مِن ذَهبٍ أو فِضَّةٍ يَطلُبُ مَن يَقبَلُه منه فلا يجِدُ أحدًا يقبَلُه منه... قال عَدِيٌّ: فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلَّا اللهَ،

وكنتُ فيمَنِ افتتَحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بكم حياةٌ لتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه))رواه البخاري .

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) أي: يَعبُدُني المؤمِنونَ بإخلاصٍ آمِنينَ، ويَخضَعونَ ويتذَلَّلونَ لي بالطَّاعةِ، لا يُشرِكونَ بي شيئًا في عِبادتي. موسوعة التفسير

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بشِّرْ هذه الأمَّةَ بالسَّناءِ "بارتفاعِ المنزِلةِ والقَدْرِ عندَ الله" والنَّصرِ والتَّمكينِ، فمَن عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُنْ له في الآخرةِ نصيبٌ)) صحيح الجامع.

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أي: ومَن كفَرَ بعدَ نعمةِ الاستِخلافِ والأمنِ وتمكينِ الدِّينِ، فأولئك هم الخارِجون عن طاعةِ رَبِّهم. موسوعة التفسير

اختلف العلماء في المراد بالكفر والفسق هنا: فقيل: المراد به الكفر الأكبر والفسق الأكبر.

وقيل: المراد به كفر النعمة، أي ومن كفر هذه النعمة بعد ذلك، فأولئك هم الكاملون في الفسق الخارجون من طاعة الله إلى معصيته.

قال البيضاوي: (وَمَنْ كَفَرَ ومَن ارتدَّ، أو كفَر هذه النعمةَ بَعْدَ ذَلِكَ بعدَ الوعدِ أو حصولِ الخلافةِ. فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الكاملونَ في فسقِهم، حيثُ ارتدُّوا بعْدَ وضوحِ مثلِ هذه الآياتِ، أو كفَروا تلك النعمةَ العظيمةَ).

وقال السعدي: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ...؛ لأنَّ الذي يتركُ الإيمانَ في حالِ عزِّه وقَهرِه، وعَدَمِ وُجودِ الأسبابِ المانعةِ منه: يدُلُّ على فَسادِ نيَّتِه، وخُبثِ طَوِيَّتِه؛ لأنَّه لا داعيَ له لتركِ الدِّينِ إلَّا ذلك).

قال ابن عثيمين: يُستفادُ مِن هذه الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لتمكينِ الدِّينِ في الأرضِ، وأنَّ المخالفةَ سَبَبٌ لِنَزعِ الدِّينِ مِن الأرضِ؛ لِقَولِه تعالى: وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ فيُفهَمُ منه أنَّهم لو فَسَقُوا ولم يُؤمِنوا ولم يعمَلوا صالحًا، ما مُكِّنَ لهم الدِّينُ الذي هو لهم، والذي ارتضاه اللهُ تعالى لهم، ويتفرَّعُ على هذا: التحذيرُ البالغُ مِن المخالفةِ والفُسوقِ، وأنَّ ذلك سببٌ لنَزْعِ الدِّينِ منهم، وهذا هو المطَّرِدُ في سُنَنِ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ فإنَّ النِّعَمَ إذا لم تُشْكَرْ زالت، وأكبرُ نعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبادِه هي نِعمةُ الدِّينِ، فإذا لم تُشْكَرْ فإنَّها تَزولُ كغَيرِها مِن النِّعَمِ.

قال السعدي: وعَدَهم اللهُ هذه الأمورَ وقتَ نزولِ الآيةِ، وهي لم تُشاهَدْ: وهي الاستِخلافُ في الأرضِ، والتَّمكينُ فيها، والتَّمكينُ مِن إقامةِ الدِّينِ الإسلاميِّ، والأمنُ التَّامُّ، بحيثُ يَعبُدونَ اللهَ، ولا يُشرِكونَ به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلَّا اللهَ، فقام صدرُ هذه الأُمَّةِ مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بما يفوقون على غيرِهم، فمكَّنَهم من البلادِ والعبادِ، وفُتِحَت مشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها، وحصل الأمنُ التَّامُّ والتَّمكينُ التامُّ، فهذا مِن آياتِ اللهِ العَجيبةِ الباهرةِ، ولا يزالُ الأمرُ إلى قيامِ السَّاعةِ: مهما قاموا بالإيمانِ والعَمَلِ

الصالحِ، فلا بدَّ أن يوجَدَ ما وعَدهم اللهُ، وإنَّما يُسلِّطُ عليهم الكُفَّارَ والمنافقين، ويُديلُهم في بعضِ الأحيانِ؛ بسَبَبِ إخلالِ المسلمين بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ.

قال ابن عثيمين: فإذا قام العبدُ بعبادةِ اللهِ مُخلِصًا له في أقوالِه وأفعالِه، لا يريدُ بها إلَّا وجهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ، ولا يريدُ بها جاهًا ولا ثناءً مِن النَّاسِ، ولا مالًا ولا شيئًا مِن الدُّنيا، واستمَرَّ على هذه العبادةِ المخلَصةِ في السَّراءِ والضَّرَّاءِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ- مكَّنَ اللهُ له في الأرضِ، وإذَنْ فالتَّمكينُ في الأرضِ يَستلزِمُ وَصفًا سابقًا عليه، وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعْدَ التَّمكينِ والإخلاصِ يكونُ الوصفُ الثاني، وهو: إقامةُ الصَّلاةِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿56﴾

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) أي: وأقيموا -أيُّها المؤمِنونَ- الصَّلاةَ بحُدودِها، وآتُوا الزَّكاةَ مُستحَقِّيها. موسوعة التفسير

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أي: وأطيعوا رَسولَ رَبِّكم فيما يأمُرُكم به ويَنهاكم عنه؛ لِتَنالوا رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ. موسوعة التفسير

فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب، وقد منته نفسه الأماني الكاذبة.

كما قال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ [التوبة: 71].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿57﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان الكُفَّارُ مِن الكَثرةِ والقُوَّةِ بمكانٍ، كان الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ، جوابًا لسؤالِ مَن كأنَّه قال: وهل ذلك ممكِنٌ، فقال

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) أي: لا تظُنَّ الكافرينَ -أيُّها النبيُّ- فائتينَ في الأرضِ فلا يُدرَكونَ، ومِن الهلاكِ يُفلِتُون، فإذا أراد اللهُ هلاكَهم فهو قادرٌ عليهم، وهم مأخوذونَ لا محالةَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ [هود: 20].

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا [فاطر: 44].

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) أي: ومَسكَنُهم في الآخرةِ النَّارُ. موسوعة التفسير

(وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أي: ولبِئسَ المآلُ الذي يَرجِعونَ إليه النَّارُ. موسوعة التفسير

حينما يتسلل الإحباط، واليأس إلى نفس المؤمن، وهو يرى ما عليه الكفار اليوم من التمكين في الأرض، وما يملكونه من القوة والهيمنة، وعندما يرى جيوشهم، وعددهم، وعتادهم، ويرى صناعاتهم

وتقنيتهم، فينتابه شعور بالنقص إزاء ما حققّه القوم من رقي، وتقدم ويصبح متأرجح التفكير في حاضر ظاهر جلي للعيان، يجسد ضعف أمة الإسلام وهوانها بين الأمم؛ تأتي هذه الآية الحكيمة كالبلسم الشافي، تعيد إلى نفس المؤمن توازنها وتشعره بالعزّة، وتضع الأمور في نصابها، في بيان حقيقة ومصير أولئك القوم، ومآلهم الذي سيصيرون إليه ؛ فتتحقق له الطمأنينة ويستشعر عزّة الإسلام ونعمة الإيمان.